التناص الديني والتاريخي في معارضة بكر بن حماد لعمران بن حطّان

religious and historical intertextual in the poem "Say to ibn Muljam"

محمّد الأمين مصدّق

جامعة محمد خيضر –بسكرة (الجزائر)، manogoodman@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018/12/15 تاريخ القبول: 2019/10/03تاريخ النشر: 2020/07/29

ملخص:

يعدّ بكر بن حمّاد التاهرتي أشهر شعراء الجزائر في العصر القديم، كما أنّه فقيه ومحدّث امتاح من معين المشارقة وتأدّب بأدبهم، فترك لنا قصائد بديعة في شتى الموضوعات. ونحاول في هذا المقال أن نقف عند الأبعاد التناصيّة الدينيّة والتاريخيّة في قصيدة "قل لابن ملجم" التي يعارض فيها بكر مقطوعة "يا ضربة من تقي" لعمران بن حطان..

كلمات مفتاحية: التناص، الديني والتاريخي، بكر بن حمّاد.

المؤلف المرسل: محمّد الأمين مصدّق، **الإيميل:** manogoodman@gmail.com

Abstract:

Bakr ibn Hammad al-Tahirti is the most famous poet of Algeria in the ancient age. He is also a jurist and scholar of hadith who benifited from the knowledge of the middle east scholars, who is well-versed in their literature. He left to us exquisite poems on various subjects.

In this article, we try to stand at the religious and historical intertextual in the poem "Say to ibn Muljam", in which Bakr is opposed to the poem "O Blow of the pious man" by Omran ibn Hatan.

Keywords: intertextuel; religious and historical; Bakr ibn Hammad

1- تمهيد:

لقد طغت أبّهة المشرق وغطّت سماء المغرب، وشاع أنّ المشارقة الذين حملوا لواء العلم، وتبحروا في صنوفه، وألّفوا آلاف المؤلفات في شتى العلوم والفنون، هم الأصل وغيرهم فرع؛ ولكنّ الناظر بعين الحق والمتجرّد من العصبية، والباحث المنصف سيجد لأهل المغرب باعا كبيرا، وإنتاجا رفيعا في جميع المجالات، ومن بينها الشعر الذي مارسوه وأبدعوا فيه.

وقد انماز أهل والأندلس بفن المعارضات الشعرية وأبدعوا فيها، حتى إنّهم تجاوزوا ميدان الشعر إلى النثر، ولم يكن أهل المغرب بأقلّ حنكة، ولا أصغر شأنا؛ بل أدلوا هم الآخرون بدلوهم، وجادت قرائحهم بما أحسنت. ونحن نأسف جدّا لضياع قسم كبير من تراث المغاربة في الشعر، وتحديدا شعر بكر بن حمّاد؛ لأنّ المشارقة أهملوه، والمغاربة تنكّروا له، وبالرغم من ذلك فإنّ المتوّفر بين أيدينا يعدّ تركة ثمينة ينبغي دراستها والافتخار بها..

2-التناص:

التناص مفهوم قديم حديث، عرفه القدامى باسم السرقات الشعريّة، وقسّموه إلى مستويات (السلخ، السرقة، الإغارة، التلفيق...)، والمادة اللغوية (ن ص ص) التي يشترك فيها النص والتناص على حد سواء تدل على الرفع والإسناد، وعلى أقصى الشيء ومنتهاه؛ وعلى الظهور والجلاء، (الأنصاري الأفريقي، الصفحات 98-99) مما يحيل إلى ترسب النصوص وازدحامها فوق بعضها بعض.

أما التناص في الدّرس الحديث فتحدّث عنه كثيرون، مثل: باختين (**Bakhtin**)، وكريستيفا(**Kristeva**)، ولورانت(**Laurent**)، وريفاتير (**Riffaterre**)...ولم يضع أيّ واحد منهم تعريفا جامعا مانعا. وإذا أردنا استخلاص مقوماته، فينبغي النظر في مختلف التعريفات المذكورة. (محمد، 1986م، صفحة 21) وإذا أردنا الاختصار فيمكننا القول إنّ التناص «هو تعالق نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة». (محمد، 1986م، صفحة 21) .

والتناص ليس مفهوما استاتيكيا؛ إنما يتنوّع بتنوع المداخل، فالبعض يتعامل معه في إطار الشعرية التكوينية، وبعضهم في إطار جماليات التلقي، وبعضهم يتعامل معه بوصفه معارضة سجالية لمفهوم البنية التي تعترض على أفكار الإدماج والاقتران، غير أن هذه الاختلافات لا تحرمه من وظيفته النقدية التماسكيّة. فهو أداة صيغيّة مخصبة ومثمرة إذا تم توظيفها لإنجاز الجديد من القديم، وبيان دور المصادر والتأثيرات الأدبية وغير الأدبية. (السعدني، 1991م، صفحة 78) .

ويقسّم الباحثون التناص إلى أقسام متنوّعة باختلاف جهاته، فهو مثلا من حيث كثافته: داخليٌّ وخارجيٌّ، ومن حيث مصدره : ديني، وتاريخي، وأدبي...ومن حيث آلياته: اجتراري، وامتصاصي، وحواري..

3. المعارضات :

المعارضة في اللّغة تحمل معنيين: حسي يتمثل في المقابلة والسير، ومعنوي يتعلق بالقول ونحوه. فقد ورد في لسان العرب: «عارض الشيء بالشيء قابله، وعارضت كتابي بكتابه أي قابلته». (منظور، صفحة 167) .

أما اصطلاحا فهي «أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما، من أي بحر وقافية فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة، بجانبها الفني وصياغتها الممتازة، فيقول قصيدة من بحر الأولى وقافيتها وفي موضوعها، أو مع انحراف عنه يسير أو أكثر حريصا على أن يتعلق بالأول في درجتيه الفنية أو يفوقه فيها». (عاتي، أفريل 2018، صفحة 472) والشاعر يعارض إما إعجابا بالقصيدة، أو إنكارا لما جاء فيها كما هو الحال مع قصيدة "قل لابن ملجم" التي يعارض فيها بكر بن حماد عمران بن حطان مستنكرا لما جاء فيها.

وهناك وجهات نظر مختلفة لدى النقاد حول المعارضة، فمنهم من يرى أنها تقوم على الاشتراك في البحر والقافية مع النزعة في اشتراك الغرض بين القصيدتين، ومنهم من لا يضع

اعتبارا للموضوع والوزن، ويكفي عندهم اتفاق القصيدتين السابقة واللاحقة في القافية فقط. ورأي ثالث يرى أنه يجب أن توافق القصيدة المتأخّرة المتقدمة في وزنها وقافيتها، وأن يكون الغرض منهما واحدا أو متماثلا؛ حيث تكون القصيدة المتأخرة صدى واضحا للمتقدّمة. (ساز، 1430هـ-2009 م، صفحة 24) .

والمعارضة تتجاوز التقليد إلى الإبداع، والمتابعة إلى الابتكار، يمزج فيها الشاعر بين القديم والحديث، فيحيي أمجاد القديم والحديث، ويضفي على الحديث الرونق، والجمال. وقد اختفى هذا اللون من الخطاب الشعري أو كاد، في شعرنا المعاصر؛ لأن خصوصية التجربة وتباينها بين الشعراء أصبحت هي معيار أصالة الشاعر، وقدرته على الإبداع والتفرق. (مصطفى، 2009م، صفحة 904).

-مناسبة القصيدة:

قتل عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه غيلة وغدرا وهو رافع من السجود في 21 رمضان سنة 40 للهجرة.وقد نكأ عمران بن حطان الخارجي (ت 84 هـ) القرحة حين قال أبياتا مارقة تأوّل فيها فاسدا، وتكلّف فيها باطلا، فمدح الفاسق بفعلته، وشمت بصهر النبيّ، وأبي سبطيه، وظنّ خائبا أنّ صاحبه الخارجي فاز بفعلته، ونال الحظوة بغدرته، فقال فيه: (هـ) أ.، 1410هـ-1990م، صفحة 156) .

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيَ مَا أَرَادَ بِهَا * * * إلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رِضْوَانا

إنِّي لأَذْكُرُهُ يَوْماً فَأَحْسَبُهُ * * * أَوْفَى البَرِيَّةِ عِنْدَ الله مِيزَانا

أَكْرِمْ بِقَوْمٍ بُطُونُ الطَّيْرِ أَقْبُرُهُمْ * * * لَمْ يَخْلِطُوا دِينَهُمْ بَغياً وَعُدْوَانا

فانبرى غير واحد لمعارضة هذه الأبيات، فما شفوا وما استشفوا، ولم تكتب لقصائدهم الشهرة والذكر، والثناء الغامر، حتى جاء بكر بن حماد التاهرتي الجزائري وقال قصيدته الخالدة التي بزّت كل القصائد التي سبقتها، وفاقت التي تلتها، فقد نقلها وتداولها واستشهد بها كثير من أهل العلم، وصارت مناط الاستشهاد حين تذكر حادثة مقتل الإمام علي.

-الشاعر:

هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل التاهرتي الجزائري (هـ200-296هـ) من مواليد تيهرت عاصمة الدولة الرستميّة؛ حيث نشأ وتلقى دروسه الأولى بها، ثم سافر إلى المشرق في سن مبكّرة وعرّج في طريقه بالقيروان. وقد أقام ببغداد واتصل بالخليفة المعتصم ومدحه، فأجزل له العطايا. كما اتّصل أيضا بالشاعر دعبل الخزاعي، وأبي تمام، وعلي بن الجهم، وأخذ الحديث أبي حاتم السِجستاني. ولقي من العلماء الرياشي وابن الأعرابي. وبعد أكثر من خمسين سنة عاد إلى القيروان أين مكث مدّة ثم عاد إلى مسقط رأسه تاهرت وتوفي هناك. وبالرغم من شهرته في الحديث والرواية لم يصلنا أيّ كتاب له في هذا الشأن، أما شعره فالمتوفر بين أيدينا ديوان لا يتجاوز 116 بيتا. (شاوش، 1385هـ-1966م، الصفحات 43-52).

-التناص الديني والتاريخي في القصيدة:

لقد امتاح الشاعر الفحل بكر بن حماد من معين الدين، وتدثّر باليقين، ووعى التاريخ، فهو الفقيه المحدّث، والعالم الفاضل الذي امتلأ قلبه حكمة، واستنارت بصيرته. ويتجلّى هذا في القصيدة التي نحن بصدد تحليلها؛ حيث تشعّ حبّا، وتترصع شوقا، وتتلألأ إجلالا، لإمام المتقين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. كما تتدفق منها مشاعر الغضب تجاه الضالّيْن المضلّين المجترمين، صاحب الضربة ومادحه، الذين جمعهما تحت حكم واحد، وهو الإجرام والعدوان، فعبد الرحمن بن ملجم مجرم بفعله، وعمران بن حطّان مجرم بقوله.

1- الإيمان بالقضاء والقدر:

يقول الشاعر: (شاوش، 1385هـ-1966م، صفحة 62)

قل لابن ملجم والأقدار غالبة***هتكت ويلك للإسلام أركانا

إذا قضى الله أمرا كان مفعولا فلا راد لقضائه، وهنا تناصٌ مع القرآن، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس/82)، ويقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ (التكوير/29)، ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ (آل عمران/145)، والإيمان بقضاء الله وقدره ركن من أركان الإيمان الستّة التي ينبغي أن يسلّم بها المسلم، والشاعر على الحسرة التي تكتنفه، والألم الذي يعتصر قلبه، والشهقة التي تصدر منه، والغيظ الذي يكتنف نفسه لا ينسى أن كلّ شيء بقدر، فاستعمل عبارة "والأقدار غالبة" ليدلّ بها على إيمانه بقدر الله وتسليمه المطلق بما تقتضيه حكمته. ثمّ إنّه جعل قتل عليّ بمثابة سقوط ركن من أركان الإسلام، نظرا للمكانة السامية والراقية التي بلغها أبو الحسن، فهو من السابقين الأولين إلى الإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وصهر النبي وأبو ذريته من ابنته فاطمة الزهراء، يدور الحق معه حيث دار.

2- عليّ أوّل المسلمين:

يقول الشاعر: (شاوش، 1385هـ-1966م، صفحة 62)

قتلت أفضل من يمشي على قدم*** وأول الناس إسلاما وإيمانا

يشير الشاعر هنا إلى الحديث الصحيح الذي رواه أكثر من واحد من بينهم ابن سعد في الطبقات، وأبو بكر بن شيبة في التاريخ، والبيهقي في السنن الكبرى، والحاكم في مستدركه ونصّه حسب رواية المستدرك: ﴿أخبرنا أحمد بن جعفر القطيعي، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي حمزة، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: إنّ أول من أسم مع رسول الله علي بن أبي طالب﴾. (هـ) أ.، 1422هـ-2002م، صفحة 147) والحديث الذي رواه النسائي في خصائص أمير المؤمنين: ﴿أخبرنا محمد بن المثنى، قال حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة، عن أبي حمزة، عن زيد بن أرقم، قال: أول من صلى مع رسول الله عليّ﴾. (هـ) أ.، 1406هـ-1986م، صفحة

21) ثم إنّ الحقيقة التاريخية تثبت أنّ عليّا كان أفضل من يمشي على قدم في زمنه، وهو خير البقية الباقية من صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

3- عليّ أعلم الصحابة:

يقول الشاعر: (شاوش، 1385هـ-1966م، صفحة 63)

وأعلم الناس بالقرآن ثم بما *** سنّ الرسل لنا شرعا وتبيانا

يريد الشاعر من هذا البيت الإشارة إلى الرتبة العالية والمكانة المرموقة التي بلغها الإمام عليّ بين الصحابة، فقد كان عالما لا يشق له غبار، وقاضيا حكيما، وشاعرا مفلقا، وخطيبا بليغا، ومفسّرا للقرآن، وعالما بالسنة، ومحاججا لا يدانى، ومما يدل على علمه وفقهه الحديث الذي نقله الذهبي في تاريخه، ونصّه: «ويروى عن أنس أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال لابنته فاطمة: ﴿قد زوّجتك أعظمهم حلما، وأقدمهم سلما، وأكثرهم علما﴾ (الذهبي، صفحة 628) وقد روى الذهبي في تاريخه أيضا: «عن سليمان الأحمسي، عن أبيه قال: قال علي: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت، وإنّ ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سؤولا». (الذهبي، صفحة 637) وروى أيضا: «قال مسروق: انتهى علم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى عمر وعليّ وعبد الله..وقال ابن عبّاس إذا حدّثنا ثقة بفتيا عن علي لم نتجاوزها...وقال ابن المسيّب قال عمر: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن». (الذهبي، صفحة 638) وقال السيوطي: «لم يكن أحد من الصحابة يقول: سلوني إلا عليّ...وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال: أفرض أهل المدينة وأقضاها علي بن أبي طالب» . (السيوطي، الصفحات 133-134)

4- علي مولى النبي وناصره:

يقول الشاعر: (شاوش، 1385هـ-1966م، صفحة 63)

صِهر النبي ومولاه وناصره *** أضحت مناقبه نورا وبرهانا

يريد الشاعر أن يشير إلى الحظوة التي شرّف الله بها عليّا عند النبي فهو صهره؛ إذ زوّجه ابنته فاطمة الزهراء، وهو والد السبطين وسيّدي شباب أهل الجنّة الحسن والحسين، وقد روى مسلم في صحيحه ما يأتي: ﴿ لما نزلت هذه الآية: (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) (آل عمران/61) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فاطمة وحسنا وحسينا، فقال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي"﴾ (هـ) أ.، صفحة 1470)، كما أنّه مولاه وناصره؛ حيث يحيلنا هنا إلى الحديث الذي المتواتر ونصّه كما روى السيوطي في قطف الأزهار المتناثرة: ﴿من كنت مولاه فعليّ مولاه﴾ (911هـ)، 1405هـ-1985م، صفحة 277). قال السيوطي: «جمع علي الناس سنة خمس وثلاثين في الرحبة ثم قال لهم: أنشد بالله كل امرئ مسلم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما قال لما قام، فقام إليه ثلاثون من الناس، فشهدوا أن رسول الله قال: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (السيوطي، صفحة 132). أما مناقب عليّ فكثيرة جدّا، وأكثر من أن تحصى، وقد أُثر عن أحمد بن حنبل قوله: «ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من الفضائل ما ورد لعليّ رضي الله عنه». (السيوطي، صفحة 131)

5- علي من النبي بمنزلة هارون من موسى:

يقول الشاعر: (شاوش، 1385هـ-1966م، صفحة 63)

وكان منه على رغم كيد الحسود له *** مكان هارون من موسى بن عمرانا

يؤكّد الشاعر في هذا البيت ما قاله سابقا، ويستند إلى دليل آخر يؤكّد به مكانة الإمام علي، وقربه من النبيّ صلّى الله عليه وسلم، في تناص مع الحديث المشهور الذي رواه غير واحد، منهم مسلم في صحيحه، ونصّه: ﴿حدثنا قتيبة بن سعيد ومحمد بن عباد قالا: حدثنا حاتم عن بكير عن بن مسمار عن عامر بن سعد بن ابن أبي وقاص عن أبيه قال: سمعت رسول الله يقول له: [أي علي]، وقد خلفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله ! خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من

موسى غير أنه لا نبي بعدي"﴾. (النووي، صفحة 1470) فلا يضرّ عليّا حسدك يا ابن حطّان، ولا ينقص من قدره هجاؤك له، فأنت من تحمل الوزر، لطعنك فيه.

6- علي أشجع الشجعان:

يقول الشاعر: (شاوش، 1385هـ-1966م، صفحة 63)

وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا *** ليثا إذا لقي الأقران أقرانا

لا يختلف اثنان في أنّ عليّ بن أبي طالب شجاع مقدام، وأسد باسل، وليث هصور يخترق الصفوف ولا يخشى الحتوف، فهو فدائي الهجرة، وبطل معركة بدر التي جندل فيها بالمشركين، وهو بطل يوم الأحزاب الذي أطاح فيه برأس المشرك عمرو بن عبد ود العامري، وهو بطل يوم خيبر التي كان فيها الفتح على يديه، وحامل الراية باختيار خير المرسلين محمد صلى الله عليه وسلّم، فالشاعر يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه: ﴿حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا حاتم، عن يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة رضي الله عنه قال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر، وكان رمدا، فقال: أنا أتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم، فلحق به، فلما بتنا الليلة التي فتحت قال: لأعطين الراية غدا أو ليأخذن الراية غدا رجل يحبه الله ورسوله يفتح عليه، فنحن نرجوها فقيل هذا علي فأعطاه ففتح عليه﴾. (هـ) م.، 1433هـ-2012م، صفحة 631) ومما يدلّ على شجاعته وقوّته ما رواه الذهبي في تاريخه: «حدثني عبد الله بن الحسن عن بعض أهله، عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خرجنا مع علي حين بعثه رسل الله برايته، فلما دنا من الحصن، خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود، فطرح ترسه من يده، فتناول عليّ بابا عند الحصن، فتترّس به عن نفسه، فلم يزل في يده، وهو يقاتل حتى فتح الله علينا، ثمّ ألقاه، فلقد رأيتنا ثمانية نفر، نجهد أن نقلب ذلك الباب، فما استطعنا أن نقلبه». (الذهبي، صفحة 626)

وقال ابن كثير في البداية والنهاية عن قتال علي وعمرو بن عبد ود العامري: « [خرج له علي] فقال له عمرو: من أنت؟...قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال: غيرك يا ابن أخي، ومن أعمامك من هو أسنّ منك، فإني أكره أن أهريق دمك. فقال: له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك. فغضب ونزل وسلّ سيفه كأنه شعلة من نار...وضربه علي حبل عاتقه فسقط، وثار العجاج، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير فعرف أن عليّا قد قتله». (774هـ)، 1430هـ-2009م، صفحة 731) والأمثلة في هذا الصدد كثيرة جدّا تمتلئ بها كتب التاريخ.

7- قاتل علي أشقى الآخرين وأخسر الناس ميزانا:

ينتقل الشاعر إلى الحديث عن سيّد الفاسقين، وإمام المجرمين، ومرتكب الفعل الشنيع، والمجترئ على أبي تراب، عبد الرحمن بن ملجم الخارجي، فيقول: (شاوش، 1385هـ-1966م، صفحة 64)

أشقى مراد إذا عدّت قبائلها ***وأخسر الناس عند الله ميزانا

كعاقر الناقة الأولى التي جلبت *** على ثمود بأرض الله خسرانا

وقد صدق الشاعر؛ لأنّ هذا الخبيث استحق الشقوة، وأصابته البلوى، وحلّت به اللعنة، واجتاحه الخسران، وهو يوم القيامة من الأخسرين أعمالا الذين يظنّون أنّهم يحسنون صنعا، والشاعر في هذين البيتين يتناص مع الحديث الذي ورد في السلسلة الصحيحة للألباني: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين الذي يطعنك يا علي. وأشار إلى حيث يطعن﴾. (الألباني، 1415هـ-1995م، صفحة 78)

ثم إنّ هذا الخارجي الضال يحسب أنّه أحسن بفعله، فهو يرى نفسه على حقّ ويرى عليّا على باطل، وقد وصفه الذهبي بأنّه خارجيّ مفتر، فعلى الرغم من أنّه قارئ للقرآن، عابد، ناسك، حتى إنّهم حين قطّعوا يديه ورجليه وسمّلوا عينيه لم يجزع، وجزع حين أرادوا قطع لسانه؛ محتجا بأنّه لا يحب أن تمر عليه لا يذكر فيها الله. لكنه عندنا من الأخسرين أعمالا،

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف/103-105).

كما أنّ الشاعر قد صرّح بمضمون الحديث الذي ذكرناه آنفا في إثبات الشقوة لابن ملجم، وهي شقوة عظيمة تضاهي شقوة عاقر الناقة بأرض الحجر، حين استمرأ فعلته، ولم يخف غضب الله تعالى وبطشه، فجلب على قومه الدمار والخراب، فقد أخذ المولى تبارك وتعالى أخذ عزيز مقتدر؛ إذ يقول في محكم تنزيله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس/11-15).

8- علي كان يعلم أنّه سيموت مقتولا:

قال الشاعر: (شاوش، 1385هـ-1966م، صفحة 66)

قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها *** قبل المنية أزمانا فأزمانا

لم يكن عند عليٍّ شكّ في أنّ قدرة الله فوق كل قدرة، ومشيئته لا بد أن تمضي، فقد سمع قول الصادق الذي لا ينطق عن الهوى؛ حيث جاء في تاريخ ابن الأثير: «قال أنس بن مالك: مرض عليّ فدخلت عليه وعنده أبو بكر وعمر فجلست عنده، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر في وجهه فقال له أبو بكر وعمر: يا نبي الله ما نراه إلا ميتا. فقال: لن يموت هذا الآن ولن يموت حتى يملأ غيظا، ولن يموت إلا مقتولا». (630)، 1407هـ-1987م، صفحة 254) .

وجاء في تاريخ ابن الأثير أيضا: «قيل من غير وجه إن عليا كان يقول: ما يمنع أشقاكم أن يخضب هذه من هذه -يعني لحيته من دم رأسه. وقال عثمان بن المغيرة: كان عليّ لما دخل رمضان يتعشى ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين وليلة عند أبي جعفر لا

يزيد على ثلاث لقم يقول: أحبّ أن يأتيني أمر الله وأنا خميص». (630)، 1407هـ-1987م، صفحة 254)، وهذه المرجعيّة التاريخيّة تؤكّد أن أمير المؤمنين كان يتوّقع أنّه سيقتل لا محالة بدليل ما رواه الذهبي أيضا في تاريخه؛ حيث جاء فيه «قال شريك عن عثمان بن أبي زرعة، عن زيد بن وهب قال: قدم على عليّ قوم من البصرة من الخوارج، فقال منهم الجعد بن نعجة: اتّق الله يا عليّ فإنّك ميّت، فقال علي: بل مقتول: ضربة من هذه تخضب هذه، عهد معهود وقضاء مقضي، وقد خاب من افترى». (الذهبي، صفحة 647).

9- الشاعر يبرأ من ابن ملجم:

قال الشاعر: (شاوش، 1385هـ-1966م، صفحة 66)

فلا عفا الله عنه ما تحمله *** ولا سقى قبر عمران بن حطانا

لقوله في شقيّ ظلّ مجترما ***وناله ما ناله ظلما وعدوانا

يا ضربة من تقي ما أراد بها***إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

بل ضربة من غوي أوردته لظى***مخلّدا قد أتى الرحمن غضبانا

كأنه لم يرد قصدا بضربته***إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

في هذا الأبيات يدعو الشاعر على ابن ملجم، ويسأله تعالى أن لا يسقي قبر عمران بن حطان؛ لأنه أثنى على فعلته، فهو صنوه في عقيدته الفاسدة، وتأوّله الباطل، والمرء يحشر مع من يحب ويتبع. «وابن ملجم عند أهل السنّة أشقى الخلق في الآخرة. وهو عندنا أهل السنّة ممن نرجو له النار، ونجوّز أن يتجاوز الله عنه، لا كما يقول الخوارج والروافض فيه. وحكمه حكم قاتل عثمان: وقاتل الزبير، وقاتل طلحة، وقاتل سعيد بن جبير، وقاتل عمار، وقاتل خارجة، وقاتل الحسين. فكلّ هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم في الله، ونكل أمورهم إلى الله عزّ وجلّ». (الذهبي، صفحة 654)

والشاعر يقطع لهذا الفاسق بالنار، مؤكّدا أنّ قصده بضربته لم يكن الفوز بالجنان ورضا الرحمن، وكيف يستوسق ذلك وقد قتل رجلا يحبّه الله ورسوله، ويحبّ الله ورسوله، وما كفر بالله طرفة عين؛ بل كان سيفا مسلولا على الشرك وأهله يجزّ أعناقهم، ويجندلهم في ساحات الوغى. وعليه فقد استحق هذا الفاجر الخلود في النار والغضب واللعنة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء/93). فكيف بمن قتل أوّل المسلمين، ويعسوب الدين، وأفضل رجل على وجه الأرض في وقته، وهو أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، والعالم الرباني، والقاضي الفقيه، وصهر النبي ومولاه وناصره، وصاحب المناقب المشعّة، والأخلاق الرفيعة، وقد كان من رسول الله بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام، وليث الحروب الباسل الذي يطحن الفوارس إذا رفعت الأسنّة والتقت الأعنّة.

4. خاتمة:

استطاع الشاعر بكلّ براعة أن يمتاح من معين القرآن، والسنّة، والتاريخ، والفقه فأحسن السبك، والانتقاء، والتوظيف، في إطار معارضته لقصيدة الخارجيّ عمران بن حطّان، فنضحت قصيدته رونقا، وازدادت جمالا في بعديها الشكلي والمعنوي، فقد ألزم نفسه أن يردّ على ثلاثة أبيات بستّة عشر بيتا على البحر نفسه والقافية نفسها. وقد كتب لقصيدته البقاء والخلود والذكر مقارنة بغيرها من القصائد التي عارضت أبيات ابن حطان.

- قائمة المراجع:

- ابن منظور. لسان العرب، مج 7.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الأفريقي. (ت 711هـ)، لسان العرب. بيروت، مج 7: دار صادر.

- أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي الشافعي (ت 676 هـ). المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دط، دت. عمان: بيت الأفكار الدولية.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي (303 هـ). (1406هـ-1986م). خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تح وتخ: أحمد ميرين البلوشي، ط1. الكويت: مكتبة المعلا.
- أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت 748 هـ). (1410هـ-1990م). تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تح: عمر عبد السلام التدمري، ط2، ج6. بيروت: دار الكتاب العربي.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405 هـ). (1422هـ-2002م). المستدرك على الصحيحين، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ط2، ج3. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- إسلام بنكه ساز. (1430هـ-2009 م). الأسلوب والأسلوبية في المعارضات،مج1، ع 4. طهران: مجلة التراث الأدبي.
- جلال الدين السيوطي. تاريخ الخلفاء، تح: قاسم الشماعي الرفاعي ومحمد العثماني، دط، دت. بيروت: شركة الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع.
- جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد سابق الدين خضر الخضيري السيوطي (ت 911هـ). (1405هـ-1985م). قطف الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة، تح: خليل محي الدين الميس، ط1. بيروت: المكتب الإسلامي.
- شرف الدين النووي. المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج.
- شمس الدين الذهبي. تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، ج3.
- عبد الرؤوف زهدي مصطفى. (2009م). المعارضات الشعرية وأثرها في إغناء التراث الأدبي، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 36.
- عز الدين أبي الحسن الجزري الموصلي (ت 630). (1407هـ-1987م). الكامل في التاريخ، تح: أبي الفداء عبد القاضي، ط1، ج3. بيروت: دار الكتب العلمية.

- علي يوسف عثمان عاتي. (أفريل 2018). النص الشعري بين القراءة وإعادة الإنتاج في المعارضات الشعرية أندلسية شوقي أنموذجا، مج 19، ع 1 . وهران، الجزائر: مجلة الحضارة الإسلامية.
- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن القرشي الدمشقي (ت 774هـ). (1430هـ-2009م). البداية والنهاية، ط2، ج2. بيروت: دار بن حزم.
- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزبَه البخاري (256 هـ). (1433هـ-2012م). صحيح البخاري، ط1. القاهرة: مؤسسة زاد للنشر والتوزيع.
- محمد بن رمضان شاوش. (1385هـ-1966م). الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، ط1. مستغانم، الجزائر: المطبعة العلوية.
- محمد ناصر الدين الألباني. (1415هـ-1995م). سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، طبعة جديدة منقحة ومزيدة، مج: 3. الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
- مصطفى السعدني. (1991م). التناص الشعري، قراءة أخرى لقضية السرقات. الإسكندرية: منشأة المعارف.
- يقطين محمد. (1986م). تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص،ط2. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.